طابع الأسلوب لكتابة الدكتور يوسف خليف

قضية الأسلوب في النقد المعاصر هي قضية الساعة، لحيويتها في حركة التجديد والنقد الحديث.

وقد كان الدكتور خليف بتكوينه المتنوع، يدرك ذلك في مقتبل القرن العشرين، وهو يستمتع بأساليب المدارس القديمة والحديثة، فاتخذ لنفسه طريقا آخر، جاء في أسلوب جديد، يتميز بشخصيته الأصيلة والمعاصرة، يشكل لوحات فنية جذابة، فأصبحنا نقرأ النثر الفني كأنما نقرأ شعرا وهو ليس بشعر، لأنه نثر فني حديث، يتسابق مع قسيمه الشعر في مجال التفوق لأنه لا يقل في إبداعه عن الشعر، فنقف حيارى في أسلوبه، هل هو نثر أم شعر حديث؟!

حينما نقرأ قوله عن حياة المرأة في الشعر :

ملهمة أخرى
يقدم في هياكلها المقدسة أغلى قرابينه
ويوقد في رحابها الشموع
ويحرق عند أقدامها البخور
عاشت فيه نغما خالدا
تعزفه قيثار الشعراء
وتوقعه أوتارهم
وأغنية حلوة
تتردد في لهواتهم
وفوق شفاههم
وحلما ساحرا
يداعب أجفانهم
ويسامر لياليهم
ويملؤها عليهم
أحلاما سعيدة

في هذه اللوحة الفنية ما يضطرك أن تحكم عليها بأنها شعر حديث، وليست هي بشعر وإنما هي نثر فني أدبي في بحث علمي، يحمل طابع أسلوبه، الذي يتميز بسمات أهمها :

أولا: الصدق الفني في تجاربه الأدبية العميقة، فاختياره لموضوعه غير عشوائي، بل يتفاعل مع أبعاده في تجربة أدبية مريرة وعنيفة، يتعرض فيها للمغامرة، مثل تجربته في موضوع :«الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي» يقول : «أقدمت على دراسته وأنا أعرف أنها مغامرة كتلك المغامرات التي كان يقدم عليها فتيان الصعاليك، ولكني أنشد مع الشنفرى : «ومن يغز يغنم مرة ويشمت» فإن تكن الأولى فما توفيقي إلا بالله، وإلا فحسبي إعذارا لنفسي أنها مغامرة أقدمت عليها لأنشد مع أبي الصعاليك عروة ابن الورد : ومبلغ نفس عذرها مثل منجح».

هذه تجربة أدبية ناضجة، وقوية عميقة، عاناها في مغامرة عنيفة كالصعاليك، أقبل عليها فتيا قويا، يقتحم المصاعب مع شعرائهم، يستمد همته وحكمته من همتهم وحكمتهم كقولي الشنفرى وابن الورد، في أسلوب متنوع يجمع بين الحداثة والجدة، والأصالة والعراقة .

ثانيا : الطرافة والتحديث : تنوعت الأنماط في أسلوبه ما بين مصطلحات وصور ورموز وصكوك ومسبوكات، فيغنى بالعمق والحيوية والطرافة يقول عن حملة التشكيك في الشعر الجاهلي : «ولسنا نبرئ الشعر الجاهلي من هذا الاتهام ولكننا أيضا لا نمضي مع هذا الاتهام إلى ذلك الحد ، الذي يجعل من رواة الشعر الجاهلي «عصبة المزيفين» لا هم لهم إلا صناعة الشعر .. والذي يجعل درس الشعر الجاهلي ضربا من الأعمال «البوليسية» التي لا هم لها إلا البحث عن هؤلاء «المزيفين» ومصادرة «عملتهم»، «الزائفة» ... فهذا الأسلوب الطريف ينبض بالحيوية والحداثة والجدة والطرافة، مع أصالته

بقلم : د . علي علي صبح
مصر

المتوغلة في التراثية، فاستعمل في أسلوبه المصطلحات والمسبوكات الحديثة : «عصبة» و «المزيفين» و«الزائفة» و «عملتهم» و «ضربا» و«مصادرة» و «البوليسبة» وغيرها من سائر الأنماط المتنوعة من العصابات في المهاجر والأسواق و «البورصة» والعقارات والصناعة وقطع الطريق وساحات السجون والمحاكم، وكلها من حقل واحد .

ثالثا: التزاوج بين البنيتين الداخلية والخارجية : تميز أسلوبه بظاهرة الاستبطان بالغوص في أعماق اللغة وماوراءها، فتتنوع روافدها في البنيتين الداخليتين والخارجيتين فتتكاثر الرؤى في الأسلوب،ويختال بأزهى ألوان الأصالة والحضارة والمعاصرة؛ فالقبائل المهاجرة بطقوسها إلى مدينة الكوفة تحت سياط «زياد بن أبيه» لم تعبأ بإرهابه وتلك هي الرؤية الداخلية،وإنما استجابت عن طواعية للمد الحضاري في المدينة فتلاحمت خيوط القبيلة مع روافد الحضارة في نسيج واحد،ولم يبق إلاخيط غامض لايميزه إلا أهل المدينة الخلص،وتلك هي الرؤية الخارجية في أسلوبه حين يقول:«الحياة القبلية الاجتماعية في الكوفة أخذت تتحول إلى صورة أخرى ذات ألوان جديدة .. أهي صورة مدنية أم هي صورة قبلية، ولكن لم يكن السبب في هذا التحول مافعله «زياد» وإنما كان السبب تلك الحياة الاجتماعية الجديدة ذات الأنماط والتقاليد الجديدة ...لكن هذه المدنية لم تقض على مافيها من إحساس متأصل بالقبيلة قضاء تاما، وإنما امتزج به امتزاجا، قد يكون غريبا علينا نحن أبناء المدن الخلص».

رابعا: التخلي عن الأساليب التقليدية والمعيارية: اجتمعت في أساليبه أطر تجاوزت القيود والأثقال في التعبير، ولم يقتصر على المعايير اللغوية التقليدية من المبالغة في التشبيه والاستعارة وغيرها، وإنما تجاوزت ذلك ليسلك أسلوبا مبدعاً في تصوير الموضوعات التراثية؛ فيبتكر فيه كثيراً من النماذج المعاصرة في فن القول، يقول: «ويسدل الستار على هذا الفصل الأول عن دور الكوفة في الدعوة العباسية... ويسدل الستار على هذا الفصل الثاني ... ليرتفع عن الفصل الثالث ... الذي تصل فيه الأزمة إلى ذروتها على حد التعبير المسرحي ..إلخ» فالقضية هنا تمرد العباسيين على الأمويين، ولم يكن فن المسرح قد ظهر، لامسرحية ولافصول ولاعقدة ولاأزمة ولاالذروة في الأزمة، ولا انقلاب ولاثورة، وغير ذلك مما شاع في الأساليب التي تصور الواقع المعاصر.

د. يوسف خليف

خامسا: توظيف التراث في بنية الأسلوب المعاصر:

كان الدكتور خليف على بصيرة نافذة في توظيف التراث؛ فيعالج نصوصه بما يتلاقح مع أساليب المعاصرة، في أسلوب يتميز بدلالات ثرية وإيحاءات غنية، تبث في بنيته الحيوية والابتكار، وهو مايطلق عليه «التناص» في الأسلوبية، ويظهر ذلك في حديثه عن «التضاد الجغرافي» في العصر الجاهلي لشعر الصعاليك، وهي ظاهرة تناولها التراث في المسرح الجغرافي تفصيلا فيقوم الدكتور خليف بتوظيفها توظيفاً معاصراً،ليتولد عن المسرح الجغرافي الظاهر«التضاد النفسي» مما يكسب أسلوبه دلالات ثرية تبث في الموضوع والشكل الحيوية والابتكار، وغيرها .

سادسا: تكرار الحروف في الأسلوب : يعتمد في أسلوبه على تكرار الحروف، فتجد في الصفحة كثيرا من الضمائر التي تكشف عن شخصيته وذاتيته مثل «أننا – ونحن – رأينا – ونرى – رأيت – رجعنا – قدمنا – نلاحظ – قلنا – تحدثنا – انتهيت – لنا».

مما يعبر عن ذاتيته والاعتزاز برأيه ووجهة نظره – وكذلك تكرار النفي والاستفهام فتجد في الفقرة التي لا تتجاوز ثلاثة أسطر أربعة استعمالات لاستفهام واحد أداته «كيف» يقول : «رأينا كيف يصور صيحة الفرح»؟

«وكيف يبالغ في تصوير إغراء الخمرة»، «كيف يصور فعلها»، «وكيف يتحدث عن فعلها» وغيرها.

سابعا: دلالات اللغة المستمدة من التاريخ والمجتمع والبيئة : يتميز أسلوبه بدلالات اللغة المكثفة من التاريخ اللغوي فيقول في براعة ذي الرمة في التشبيه : «وتتركز براعة ذي الرمة الصناعية في التشبيه، فهو المقوم الأول لصناعته الفنية .. ومن بين صور التشبيه المختلفة اتجه ذو الرمة إلى التشبيه التمثيلي الذي رأى فيه المجال الفسيح لإخراج صوره في الأوضاع التي يريدها لها، فأتاح له هذا الضرب من التشبيه أن يتنفس ملء صدره في عمله الفني الشافي».

«وصندوق الأصباغ عند ذي الرمة - في مجموعه - صندوق صحراوي اشتق أكثر أصباغه من بيئة الصحراء ..» فالجانب المستمد من مصادر التاريخ في أسلوبه يظهر في التعبيرات الآتية : «براعته الصناعية في التشبيه» و «المقوم الأول لصناعته الفنية»، و «القمة التي وصل إليها صناعة التشبيه في العصر الأموي» و «اتجه إلى التشبيه التمثيلي» و «وأتاح له هذا الضرب من التشبيه أن يتنفس ملء صدره» . وأما الجانب الآخر في أسلوبه المستمد من واقع البيئة وحضارة المجتمع، فيظهر في هذه التعبيرات المترفة الراقية المهذبة، فلا تجد قلقا ولاتحتاج إلى كبير معاناة في الوقوف على مقاصدها مثل تعبيراته : «وهي ظاهرة سجلها له القدماء»، «وصندوق الأصباغ عند ذي الرمة»، اشتق أكثر أصباغه من بيئة الصحراء»، «يستخدمها أحيانا بسيطة كما يراها في الطبيعة وأحيانا أخرى كان يؤلف منها ألوانا مركبة كما يشاء له خياله وفنه»، «ومع هذا الصندوق البدوي كان هناك صندوق حضري» وهكذا.

بهذه المعالم الفنية في بنية أسلوبه، والنظرة الحديثة في فن القول، استطاع الدكتور خليف بشاعريته وأكاديميته العلمية أن يسبق تلاميذه وأتباعه في اختراق الزمن، ليطبق علم الأسلوبية في أسلوبه الأدبي، وتصويره الفني، لكنه في أصالة وعراقة، يصل بين الماضي والحاضر، وبين التراث والمعاصرة والحداثة، عاش مع النهضة في النثر الفني مع المدارس القديمة، والمدارس الحديثة، لكنه بشخصيته المتميزة، اتخذ له طريقا آخر في أسلوبه، فجمع بين هذه المدارس كلها، ليشكل اتجاها جديدا، نابعا من شخصيته الفنية، فلا هو تابع لغيره، ولا ناعق يسير وراء كل هيعة، ولا يستجيب لكل صيحة، بل تعامل مع ذلك وهو على بصيرة نافذة، ونظرة أصيلة، ومذهب طريف .

قد أجمع عشاق فنه، وتلاميذ مدرسته على أن أسلوبه في فن الكتابة، هو تصوير شاعر وقصيدة إبداع، فلا تستطيع أن تميز بينه وبين الشعر الجديد، يتخذ شكل الأسطر، وهو نثر فني يقول :

شاعرا !!
فنانا !!
وهب حياته ..
وفنه
لشيئين
الحب من ناحية
والصحراء من ناحية أخرى
وعاش حياته القصيرة
التي مرت
كحلم ليلة
من ليالي الصيف
يوقع في حبهما
على قيثارته الحالمة
أجمل وأروع ..
ما استمعت إليه البادية العربية
من أنغام وأحلام
يسكب فيها نفسه الرقيقة
وتذوب بها روحه المرهفة

إنه أسلوب رائع وممتع، وشاعري جذاب، لا لأنه شعر جديد، ولا قصيدة حرة، ولكن لأنه قسيم الشعر، ومنافس له، لأنه «نثر فني» و «بنية أسلوبية فنية» الذي يتفوق على الشعر أحيانا.

في هذا البحث عن الأسلوب والأسلوبية، أردت أن أكشف عن عالم الدكتور يوسف خليف الأدبي والفكري، لتوضيح سمات شخصيته وحياته وفنه الأدبي .

رحم الله شيخنا الدكتور يوسف خليف وأجزل له المثوبة. ■